جنوب لبنان، نيسان 2050

والدي العزيز،

كما هي عادتي، ها هو الأحد الأخير من شهر أيلول، وللسنةِ الخامسة والعشرين على التوالي لم أخلف الوصية يومًا. ها أنا جالسةٌ في بيتنا الريفي على الشرفة المطلة على خليج الناقورة، وقلبي يفيض بكلماتٍ لطالما حلمت أن أكتبها لك على مرّ أعوام الغياب. الهواء عليل، محمّلٌ برائحة زهور البرتقال وأمواج البحر، والسماء صافية كحلم قديم تحقق أخيرًا. حياتي الصاخبة أصبحت هادئة كسكون الليل بعد هذا الصيف، فقد تقاعدت فتاة العمل باكرًا لتربي ابنيْها اليوم، مستذكرةً كيف ترعرعت في أحضانك سابقًا في هذا المنزل.

لبنان، يا أبي، والجنوب خصوصًا، لم يبقيا كما تركتموهما. جمال هذه الأيام أكثر مما تخيلته في ليالي حنينك. حين وطئت قدماي أرض مطار صور منذ أشهرٍ، بعد غربة طويلة، وجدتُ لبنان مختلفًا، كأن الزمن قد غسل عن أرضنا غبار الحروب واليأس، وكلّلها بالحياة. لا بنادق، لا صراخ، لا طوابير، ولا وجوه شاحبة، فالجنوبُ بدا كعروسٍ خرجت من تحت الرماد وهي تبتسم بشفاهٍ ندية.

مطارنا الجديد تحفةٌ معمارية من الزجاج والضوء، وكأنه لوحةٌ فنية أُتقنت تصويرها بريشة إبداعية. الجدران تروي قصص المهاجرين العائدين، والوافدين الجدد الباحثين عن وطنٍ يحضنهم. بين هذا وذاك، تنفست صعداء الأنين مستذكرة عبق ذكريات من رحلوا لنحيا. أعود للوطن بعد هجران سنينٍ، وأنا أحمل حقيبة صغيرة بالكاد تحمل تضحيات الغربة، ولكن معي كيسٌ مليء بعزيمة الوطن.

خوفي من العودة تلاشى سريعًا مع أول نظرة اختلستها سرقة من شباك الطائرة المجاور لمقعدي. أبي، كيف لي أن أصف لك الصمود بالعبارات وأنت المدرك أن أرض الوطن الصغيرة تحمل في طياتها حكايات ألف ليلة وليلة، ولو بدأنا بسردها لانتهى الدهر ولم ننتهِ.

عُدت يا والدي إلى لبنان بعدما أنهكني عناء الغربة، وكانت كالداء يتغذى على جسدي النحيل بصمتٍ. كانت ذكرياتي معك هي طوق نجاتي دومًا فهي تحلي مرارة البُعد مثل ملعقة العسل الجبلي عند الصباح مع كأس الماء الدافئ. كلما اشتدّ بي اليأس أو غمرني تعب الأيام، يسير في مخيلتي أنين الحنين. اشتقتُ للزوايا، للأبنية، للأرصفة.. اشتقتُ للبيت، للتراب، للجنوب... اشتقتُ للبنان... اشتقتُ لك... اشتقتُ للشعور بأني على قيد الحياة، فأيامُ الغربة مرّةٌ كطعم قهوتك الصباحية، أرتشفها يوميًا، ولكنها فقط عمرٌ يمرّ دون لذّةٍ أو طعم. لا حكايات أُخلّدُها للأيام...

عُدت يا عزيز الروح إلى لبنان، ولبنان حاضرنا غدٌ لطالما حدثتني عنه بنسيج أحلامٍ سردتها مخيلتك إيمانًا بالتغيير والوحدة والنهوض. أنت من كنت تقول: "الوطن منبت الحياة والحب". ها أنا بعد سلوك طريق العودة، أقول لك: "لولا الوطن ما حيينا. لولا حب الوطن ما ضحينا. لولا الولاء للوطن ما عدنا."

عُدت يا والدي، وأدركت أن الغربة ليست بالهجرة؛ الغربة بغيابك عني دون لقياك في الوداع الأخير. الغربة أنني أتوق للعناق، وأعرف أن الوصول محال. الغربة أني كبرت، وبدل أن أراك تداعب أحفادك، هم يلهون بمداعبة تراب الوطن الذي احتضن جسدك بعدما سرقتك منا اغتيالات الكيان أيام الحرب قبل خمسة وعشرين عامًا. حينها لم تدمع العيون، إنما بكى الجنوب حرقةً ينعي أجسادكم الشهيدة فوق ترابه. مُزج التراب اللبناني برائحة الدم، وفاح في الأفق عبق النضال.

لعلها ليست الهجرة، بل هو اغتراب حتمي. اغتراب ما بين الحياة والموت. اغتراب عدم اللقاء، بل السعي منه لأجل الأفضل. رغم اغترابكم، لكننا كنا على عهدكم، وأنهينا مسير العودة بتخطيط الانتصارات، مؤكدين أنه عندما نادانا الوطن، لبينا النداء، رافعين رايات العِزّة، فليس هناك من يذلنا، إنما نحن من توحدنا على زوال من تجرأ على التفكير بسحقنا. مَنْ تغذى بزرع الفتن العربية لثمانين عامًا، كُسرت جناحاه وأصبح ذليلًا ليس بمقدوره حتى أن يلفظ اسم لبنان ثانية.. لم يعد عدوًا، إنما أصبح فعلًا ماضيًا ذا فاعلٍ مستتر من دون مفعول به. فقط: "انتهى.". إيمانًا منا بدم شهدائنا، أحيينا الغد مع مرور الأعوام. ليتك بيننا تشهد التغيير، ترى النهضة، وتلتمس الوحدة اللبنانية.

لأخبرك قليلًا عنا: طرقات لبنان مُعبّدة بالأشجار المزروعة على الجانبين، والشوارع لم تعد مظلمة، فالأضواء أصبحت تعمل بتقنية الطاقة الشمسية، واللوحات الإعلانية خلعت رداء الطائفية، وتحلّت بزينة الترويج لمعارض فنية

ومهرجانات موسيقية. المراكز الثقافية تفتح أبوابها مجانًا لمن يريد أن يتعلم أو يُبدع. خان الصابون وخان الخيّاطين في طرابلس تحوّلًا إلى معارض للفن المعاصر، حيث يُعرض فن الشارع إلى جانب الخط العربي. الأسواق اللبنانية شهدت أيضًا تغييرًا، وبدأت تزخر بمنتجات محلية طازجة، فأراضي البقاع وسهوله الشاسعة تحوّلت إلى حقولٍ تعتمد على الذكاء الزراعي، وهي مزودة بأجهزة استشعار وتقنيات ريّ حديثة يُتحكم بها من قبل الطلاب وهم في معاهدهم المحلية.

أتتذكر مشكلتنا مع مطمر النفايات في صيدا؟ حتى هذا اختفى ومضى مع صفحات الماضي العتيق. شوارعنا نظيفة كنَصاعَةِ بياض الثلج، وعلى الجوانب قُضِيَ على أزمة التعمير دون التراخيص، وأصبحت المباني مرتفعة كقصائد حجرية: رونقٌ جديد مع الحفاظ على إرثنا العظيم. شارع الحمرا، مثلًا، يُخلّد صورته المتوارثة في أغنية خالد الهبر، "شارع الحمرا"، ويزدهر بكونه ملتقى للأدباء والشعراء، ليس فقط اللبنانيين، إنما أيضًا العرب والأجانب. عادت السياحة أقوى مما كانت، لكنها سياحة تحترم التراث اللبناني العريق. تخيّل أن السوق القديم في جبيل استطاع الحفاظ على حجارة الماضي، لكن أُضيفت إليه بعض التقنيات التفاعلية مثل الشاشات الصغيرة التي تسرد التاريخ، والسماعات الذكية التي تشرح بلغات متعددة لجذب المزيد من السياح.

أتريد أن تضحك قليلًا بالمفاجأة الكبرى؟ غيّرنا الفوضى السياسية التي لطالما احتاجت لمعجزة إلهية لتُفهم. الفساد، الذي كان جزءًا لا يتجزأ منا، استُبدل ببرلمان يضم اليوم شبابًا وشابات يمثلون كل أطياف المجتمع، بلا محاصصة ولا محسوبيات، ويدًا بيد يعمل الجميع على قضايا البيئة، وحقوق الإنسان، والابتكار، وهي عناوين النقاشات لا الصراعات. حررنا اقتصادنا من قيود الماضي، وصارت دولتنا مركزًا للتكنولوجيا الخضراء والاقتصاد الرقمي، بعدما استثمرنا في شركات ناشئة أسّسها شباب لم يغادروا الوطن. كان الحوار حافزنا فهو لم يجعلنا فقط نفهم دوافعنا بل ودوافع الآخرين. أصبحت الاختلافات مفهومةً، وحين فُهمت، أضحت تفصيلًا لا خلافًا. فوق كل ذلك، ما زلنا نسعى ونسعى دون كلل... أجرينا أيضًا الانتخابات الرئاسية الأسبوع الفائت، وتوجنا أول امرأة تترأس لبنان. ليست سيدة أولى، هي أول بداية في طريق عودةٍ نادانا الوطن لأجلها، نحن المغتربون.

أعرف أنك لو كنت تقرأ رسالتي هذه، لكنت لمتني على فقراتي السابقة، وأنت من كنت تردد على سمعي: "لا يهمّ الحجر إنما البشر". لا تخف يا أبي. اللبنانيون لبنانيّو الجذور، ومهما مضى تبقى الهوية هوية. ما يلفت اليوم هو وجوه الناس التي زال عن ملامحها الضغط والقلق. أخيرًا، أصبح اللبناني يعيش في بحبوحة، يسير مرفوع الرأس، ويبتسم للغريب قبل القريب، وكأنه أخيرًا أدرك أن الجار قبل الدار، وأن وحدتنا هي السبيل الوحيد لإيجاد أرضٍ نستحق أن نعيش فيها. هكذا صار لبنان، بيتًا يرحب بالجميع. سعادتنا اليوم ليست شيئًا نسعى إليه، بل شيء نعيشه على الدوام.

أكتب لك هذه الكلمات، وعيناي تدمعان فرحًا اليوم لا حزنًا، وأنا التي لطالما نالني اليأس حين نذكر لبنان. أتصدّق أنني أمشي اليوم بين الناس دون أن أسمع كلمة طائفية واحدة؟ أتصدّق أنني أزور قرى لبنان كاملة من الشمال إلى الجنوب، فالشرق والغرب، وأشعر أنني في بيت واحد ممتد على مدى الجبال والوديان؟ ليتكَ يا مغتربي بيننا لتشهد لبنان الحياة.

أعرف أن رسالتي لن تصل إليك فهي مثل كلّ الرسائل التي أكتبها لك شهريًا وتبقى مخبأة في جاروري، فالمرسل إليه يقطن بلا عنوان. لا أعرفُ كيفَ، ولكن ذكراكَ صورةٌ لا تفارقُ الوجدان. كلما ذكرتكَ نزف القلبُ قبل دمعةِ العين. أنت الغائب الحاضر في وجداننا. أنت البعيد عن العين والقريب من القلب. أنت الشهيد الحي في نفوسنا، بعد أن كنتَ يومًا أستاذًا، معلمًا، رسول كلمة، ونبراس نورٍ أنار دروب طالبي العُلا. إحدى الإنجازات التي حققها من تعلموا على يديك أنهم أقاموا مبادرات مذهلة حول تحويل القرى المهجورة إلى مراكز سياحية وثقافية نابضة بالحياة، وقاموا بإنشاء إذاعة شبابية تنقل قصص النجاح والإبداع من كل زاوية في لبنان. كُنت نِعمَ المربي وقائد الأجيال. غرستَ بالطلاب الحلم ليخلقوا به ما يريدونه ولا يجدونه، ويظلّ الأمل يحدوهم بأنه سيكون يومًا ما واقعًا.

لم أكتفِ بالتعبير، إلا أن حبر القلم بدأ يجف، مُعلنًا الانهزام أمام عظمة عامنا الحالي. لكن أتعرف شيئًا؟ الأمر لم يكن سحرًا. خلف هذا التحول، هناك إرادة جماعية، هي الإرادة اللبنانية. تفرّق اللبنانيون طويلًا، ولكن بعدما اجتاح العدو أراضيهم، أدركوا أن فتنة الداخل تفرّق ولا تسُد، وأخيرًا فهموا أن قوتهم في وحدتهم. لم تكن معركة سهلة، لكنها كانت معركة البقاء أو البقاء، فوالله، عند الحاجة، نبذل جميعنا، مسيحيين قبل المسلمين، الغالي والنفيس للوطن. لم ندعم السلاح، إنما ابتكرنا السلاح، و استثمرنا في التعليم، وفي العدالة الاجتماعية، وفي المصالحة. أشدد على كلمة "أننا"، لأنه حتى المغترب لم يترك لبنان، وادّخر ليموّل المشاريع الوطنية التي خدمت حركة النهضة التغييرية. أُعيد بناء الوطن بالحوار، لا بالرصاص. وطدنا علاقاتنا العربية والدولية، ورسمنا حدودنا بشروطنا.

أبي، يا عُدي،

عاد الجميع، ولكنك لم تكن معهم، إلا أن حكاياتك عن لبنان الذي غادرته غدت تعود وتعود، دون مبالغة، في وصف الشوارع الملأى بالموسيقى، والليالي المضاءة بحكايات الجيران، والساحات التي لا تخلو من ارتفاع أصوات الضحكات... كم يطيب لي أن أقول لكَ: "عُد وتنعم بجنّةٍ على الأرض، أيها المغترب"، إلا أنني على يقين: لولا الرحيل، لما أدركنا طريق العودة. جراحنا المفتوحة صارت اليوم قلبًا نابضًا بإشراقة الأمل.

في كل أحد، ومع دقّات أجراس الكنائس وصوت الآذان، يجتمع اليوم اللبنانيون مع عائلاتهم دون شتات، وصوركم ذكرى لا تفارق الفؤاد... كبار السن يروون قصص الأمس، والشباب يغنون للغد. الأطفال يركضون آمنين، فرحين، لا يخافون من شيء سوى أن ينفد الوقت. لم تكن رحلة سهلة، ولكننا تعلمنا أن الشفاء لا يأتي في يوم وليلة. علينا أن نمشي خطوة خطوة، كطفل يسير على أطراف أصابعه، بعدما وطأت قدماه الأرض لأول مرة. مع الوقت، مشينا الخطوة الكبرى، وأصبح لبنان اليوم بلدًا لا يطرد أبناءه، بل يناديهم للعودة. بلد يزرع السلام بدل الشقاق. بلد يكتب قصته الجديدة بأيدٍ لبنانية مؤمنة بأن الوطن منبت الحب والحياة.

مع خالص حبي وشوقي وعروجي،

طفلتك المدللة،

أسما